قصة قصيرة

سفر العودة

حمد صالح

لا يني هـذا السواد الكثيف ، القابض للنفس ، يتوالد باستمرار اميد من اعماق سحيقة . ينبعث من الداخل ليغلف الافق بتلك العتمة الخانقة ويزحف على وجه السماء . يزحف الى الاعلى فتسحب نفسا عميقا وتزفره بتأوه مرير ومن ثم تعود الى اسقاط خرزات مسبحتها الطويلة ، خرزة وراء الاخرى ، متحسسة على جبينها دفء ما تبقى من نور شمس آفلة ، فتلوي يدها الى الخلف لتتحسس برؤوس أصابعها صفحة الجدار الطيني متتبعة الشقوق والاخاديد الجافة الى أن تلامس الارض المحيطة بها متعثرة بانحناءة الباكورة المستلقية تحت ركبتها . اعتادت أن تجلس والباكورة على مقربة منها ، ان لم تكن تحتها، حيث انها لا تستطيع أن تفارقها لحظة . تتوقع باستمرار أن تستعملها على نحو مفاجيء ، قبل أن توافيها كنّتها بالسرعة التي تبغيها ، فضلا عن كونها العين الوحيدة المتبقية عندها وهي أحرص من أن تفقدها. عادت الى اسقاط الخرزات مصحوبة بتمتمة استغفار خاشعة ، محنية الظهر ، غير آبهة بذلك السواد المكثف ، المنبعث من هذا العمق السحيق برغم كونها تراه بقنوط وخوف وهو يصبغ الافق ويستمر في زحفه العنيد ، فكما لو انها تقف على الضد من هواجسها تصرّ على انه يجب أن يعود . بشارته توشك أن تدخل القلب . كامل الذي سافر وترك وراءه كل شيء كما هو . البيت والمزرعة والمواشي والزوجة والارض والأم . كلنا بانتظاره . اذن لازم يعود كامل ، نعم لازم يعود . ابتسمت لنفسها بارتياح وهي تربت على ظهر القطة التي استكانت في حضنها بتودد تجيده القطط على نحو غريب ، بيد ان القطة لم تلبث أن ماءت باستنكار لا يخلو من توثب ، فاهتز الصمت بحركة مفاجئة في راسها المأهول بالسكون ثم استكان متشحا بسواده . وثبت القطة الى الامام بسرعة عجيبة كما لو انها صعقت بخطر مميت ، فهوت يدها الى الارض. تلمست الباكورة بحركة عفوية. ارتخت عضلات الجبين المقطب ثم عادت الى التقلص المتحفز ، وعلى الوجنتين الذابلتين ارتعشت خابية وضعيفة طيف ابتسامة عريضة . انتشر في الافق المظلم ـ كالبيوت ، كالحقول ، كالبساتين ، كاحراش القصب، كالنخيل العامر بالوشوشة الحالمة والاخضرار الندي ـ غبش فجر جميل آت مع الريح يزحف في الراس المتأهب لالتقاط اية نأمة أو حركة أو رائحة قد تلتفع وجه الصمت . لماذا وثبت القطة على هذا النحو المفاجيء ؟ بلا شك انها فوجئت بشيء ما . همّت أن تنادي كنتها لترى فيما اذا كان على الطريق أحد ، غير انها لم تفعل . ظلت صامتة ، صاغية ، متحفزة ، وكان الصمت يتمخض عن رائحة عذبة ، تغمرها وتغمر القرية وتغمر الفضاء الجميل . خيل اليها ان صوتا رجوليا خشنا يقترب منها . صوتا لا تشك في وضوحه وقربه يتخلل تشابك افكارها . تقطب حاجبيها صاغية باهتمام بالغ الى مصدر الصوت . وكان الصوت ما يزال يتمخض عن رائحة عذبة ومضيئة . تتسع رقعة الضوء الخضراء فيمتلىء راسها ـ الذي اصبح بحجم الفضاء ـ بالرائحة الخضراء الندية ولا صوت يستبان . ينحصر العالم كله في نقطة كائنة بالضبط أمامها ، ليست بعيدة ، لو مدت يدها ربما وصلتها . ترفع راسها الدائخ باختلاط الروائح العطرة بتأهب . يضاء الوجه القرمزي الكامد باشراقة فرح مدفون يسبح كاشراقة ضوء شاحبة تطل من ظلمات بعيدة الاغوار . تتسع اضاءة الابتسامة العريضة ، حينئذ وبعمق يدعو الى العجب انطبعت على الجبين المرفوع الى الاعلى قبلة مألوفة سرعان ما لثمت جبين الحياة واضاءت فرح الآخرين .

تحاملت على طرف الباكورة متعثرة بأذيالها . اضطرب جسدها النحيل بجانب الباكورة فاسندته على الجدار ، وحين آمنت الى انها لم تسقط بعد ، تشابكت اصابعها على انحناءة الباكورة .

ساقاها يرتعشان تحتها ، بيد ان هذا لم يمنعها من الاندفاع الى الامام بخطوات مترنحة . عجز الساقان المتخشبان عن حمل المجسد المترع بالرائحة العطرة

والامل المشرق ، غير ان الباكورة كانت المسند الثالث والمهم فحملته كل ثقلها ومضت تلهث الى الامام سابحة في ضوء يمتد عائما في قرية كلها خضراء ، تفوح في جنباتها التي كانت قابضة للنفس رائحة قبلة رجولية مألوفة .

مضت محدودبة على الباكورة تكاد لخفتها ان تركض في هذا المنبسط الاخضر تود الوصول الى نقطة بالضبط ليست بعيدة عنها الآن . تريد أن تحتضنه بحرارة ، تعانقه بشوق . تريد ان تصله قبل ان يصلها. تريد أن تتحسس انفاسه الساخنة وهي تمسح عن جبينها المعفر غبار الانتظار الطويل .

تقدمت متوكئة على باكورتها المضطربة وابتسامتها المتلهفة تزداد اتساعا على وجهها المجعد متسائلة بتمتمة مرتبكة :

ـ كامل ؟!

توقفت فجأة عن السير حيث ان حنجرتها كانت جافة وأنفاسها توشك أن تتقطع . لعقت لسانها وهي تضطرب فوق الباكورة صارخة بكل ما تملك من حرقة والتياع :

ـ عائشة ...

كطلقة قاتلة استقرت في الرأس ، أو شظية قنبلة ساخنة انفجرت في الصدر ، وعلى نحو صاعق يخطف الابصار ويشلّ الحواس ، انبثقت من الداخل والى ارتفاع شاهق عاصفة هائلة من الدخان الكثيف ، والتراب المثار ، وشظايا الحديد، وقطع من أشلاء آدمية ممزقة . أيد ، أرجل ، وجوه ، عظام ، جماجم ، أحذية ، مزق أقمشة داكنة . تختلط كلها في عاصفة هائلة تشكل في تلاحمها هيكلا معينا ، كجسد بشري مفكك ، متناثر ، يرتفع عاليا ، يغيب لحظة في عتمة الدخان والتراب ثم يستبان متهاويا الى الاسفل فيأتي مبحوحا صوت ارتطام الجسد البشري بالارض الصلبة . فيما ظلت هي منطرحة متشبثة بما تبقى من الباكورة وصوت انكسار الخشب يثقب مريعا بين صدغيها الاشيبين ، وخلال اللهاث العاج وافاها اصطفاق الباب المعدني بجدار الطين ، ووقع خطى مرتبة ، مسرعة ، تقترب منها ، وفحيح انفاس لاهثة تنفرد بأذنها المملوءة بصوت الانكسار ، وثمة صوت مستغرب يتساءل :

ـ عمتي ، لماذا فارقت مكانك ؟

قبضت بأصابع مرتجفة على كتف كنتها مهمهمة بكلمات غير مفهومة . رفعتها عائشة من تحت أبطيها بهمة الى أن استقامت ، وعبر الاخاديد المظللة ثمة خيطان يلتمعان على ضوء الشفق البرتقالي . ينعقدان عند الذقن . تكبر مساحة النقطة الصافية كلما تحرك الجفنان تلك الحركات المعصورة فيما كان الجسد المنحني يرتعش بخفة كرعشات انسان يحتضر. تساءلت عائشة :

ـ كيف استطعت أن تصلي الى هذا المكان ؟

انفرجت شفتاها المزرقتان ثم عادتا الى الانطباق. لا يبدو ان هناك ما يقال . كان جسدها يرتعش بسرعة وتردد بحيث لا تستطيع السيطرة عليه ، وتحت أبطيها تتحسس يدي كنتها تطوقانها باحكام لكنهما لا يقويان على منع جسدها من الاهتزاز العنيف ، وأمامها السواد القاتم يزحف الى امتدادات نائية ، وفي أنفها ما زالت تفوح رائحة التراب الرطب :

ـ ألا ترين أحدا على مقربة منا يا عائشة ؟

أجابت دون أن يفارق ملامحها الاستغراب :

ـ لا ، أبدا ، لا أرى أحدا . الطريق فارغ .

تلفتت من باب التأكد ، فكانت الشمس حمراء متوهجة كفوهة تنور حام مزروعة وراء جبل (طبيج) المغمور سفحه المقابل بالظلّ الرمادي ، والدخان يرتفع شفافا ومتلويا من تنانير القرية ، وعلى الطرقات المارة وبين الحقول تعود الى حظائرها أغنام وأبقار ، وفلاحون يعودون كالماشية الى بيوتهم ، وأطفال يتراكضون بين البيوت الطينية ، يلعبون بمرح . كان كل شيء نظيما وهادئا :

ـ كل شيء على حاله يا عمتي ، لكن لماذا ؟

ظل جسدها الهزيل يرتعش بين يدي عائشة المتصلبتين ، وعلى وجهها المغبر يختلج ظل الغروب القاتم :

ـ لا أدري يا عائشة ، لا أدري . خيل اليّ ان شيئا ما قد حدث .

أضافت بارتباك وبلهجة متوسلة :

ـ تأكدي يا عائشة. افتحي عينيك بكل الاتجاهات. أنظري جيدا .

أجابت عائشة نافضة رأسها علامة النفي ، محدقة بذهول بوجه عمتها المليء بالانفعالات الحادة :

ـ متأكدة يا عمتي . كل شيء كما هو .

خبت على الوجه المهدم حدة الانفعالات ، وجفّ بين الاخاديد اثر الدموع ، فأضحى يشبه بحكم جموده الحجري مومياء دميمة عائدة الى أزمان قديمة ، موغلة في القدم . تساءلت بهمس مكتوم :

ـ هلّ آن وقت الصلاة يا عائشة ؟

ـ لم يؤذن بعد ، لكن الشمس أوشكت على المغيب . هل أعيدك الى الداخل ؟

لزمت الصمت فترة ورأسها المعصوب بفوطة عتيقة ومتسخة يوافق جسدها في اهتزازه السريع كأنها مصابة بحمى شديدة . قالت بفتور :

ـ أريد أن أظل واقفة هنا ، لبرهة أخرى يا عائشة .

بدا على وجه عائشة كدر مباغت ، لكنه لم يلبث ان تلاشى ، غير ان مسحة التساؤل ظلت قائمة ، وكان الصمت بينهما مشحونا بشتى التأويلات . قالت بارتباك :

ــ الباكورة انكسرت . فال خير ان شاء الله . انكسر الشر .

ظلت واقفة . تنزلق أكثر في ظلام صمتها المطبق، وقد خبت حدة الرعشة الا انها استمرت كالمعتاد . اهتزاز رتيب ، فاتر . اصطنعت عائشة لهجة المازحة وهي تقول :

ــ سيجلب لك كامل باكورة جديدة حال عودته ، افضل من هذي .

اكتفت بأن هزت رأسها باقتضاب ، في حين ظل وجهها على ذات الجمود الغائب باستثناء حركة الشفتين المهمهمتين من دونما كلام ، وتشنج الاصابع الراجفة او ارتخائها . كان الوجه يحمل لون التراب الكامد المليء بالاغوار المحفورة والتجاعيد الناتئة ، والعينان كثقبين صغيرين يحتلهما من الداخل بياض منطفىء مشوب بلون رمادي غامق ، وخصلة بيضاء ملتوية على بعضها نافرة على الصدغ الايمن وراءها تظهر الاذن بيضاء . نظيفة ، يوسمها من الاسفل ثقب صغير . تساءلت عائشة بالحاح ينم عن نفاذ صبر :

ــ هل نظل واقفتين في هذا المكان ؟

اجابت بهمس خامل وكئيب :

ــ لحظة يا عائشة . هل تعبت من الوقوف هنا ؟

ــ لا ، ولكن لا معنى لوقوفنا هنا . اي فائدة تجنى من الوقوف هكذا ؟

رمت رأسها الذي الفته ثقيلا ، لا تقوى على حمله ، على كتف عائشة متوجسة على نحو حذر نعومة الملفع الحريري وشناشيل (الجرغد) المضمخة برائحة المسك والقرنفل والشيح :

ــ لا فائدة ترجى من ذلك .. لا فائدة .

اضافت وهي ترفع رأسها متأوهة بذات الهمس الخامل .. الكئيب :

ــ قوديني الى الداخل يا عائشة .

الشرقاط (العراق)

دار الآداب تقدم

الثلج يحترق

رواية بقلم

ريجيس دوبريه

في هذه الرواية ، يقفز مؤلف « ثورة في الثورة » الى الصف الاول من الروائيين الفرنسيين المعاصرين ، فينال أخيرا « جائزة فمينا » المشهورة تقديرا لموهبته وفنه .

و « الثلج يحترق » قصة رجل وامرأة ، بوريس وايميلا ، يبحث أحدهما عن الآخر ، فيلتقي به ثم يضيعه ، ثم يلتقي به ثانية ، ويحن اليه ويفقده ، عبر أوروبا وأميركا . في النضال والعذاب والموت والقتل . من أجل حب البشر .

اختارت ايميلا ، ابنة جبال النمسا ، أن تقاتل من أجل العدالة . وتلتقي في هافانا بشاب فرنسي ، بوريس ، نجا من ثورة أخرى ، فتسحره ، ولكنها تحب زعيما ثوريا ، هو كارلوس ، وتذهب فتعيش معه في « لاباز » ، في الخفاء والفرح ، الى اليوم الذي تغتاله الشرطة البوليفية . وتفقد ايميلا كل شيء : الرجل الذي تحبه ، والطفل الذي تنتظره ، والمعركة التي تخوضها ، ولكنها لا تترك الدرب الذي سلكته ، فمن كوبا الى التشيلي ، ومن بوليفيا الى انكلترة ، ومن باريس الى همبورغ ، تضطلع بقدرها حتى النهاية . قدر المرأة المناضلة .

ان « التاريخ » يسكن قصة هؤلاء الابطال . فهو لحمهم ، وعذابهم ، والمهم . ان سعادة بوريس وايميلا مستحيلة ، ولكن أناسا آخرين سيكونون يوما ، بفضلهما ، أقل شقاء .

ان هذه الرواية أغنية حب في مأساة عصرنا . توكيد ارادة للحياة وللنضال .

تصدر في الشهر القادم